الاعداد المعنوى للحرب الصليبية المضادة

للدكتور صلاح الدين البحيرى
مدرس الحضارة الاسلامية بكلية الآثار ـــ جامعة القاهرة

يعتبر العصر الأيوبى عصراً مجدداً ومبتكراً فى ميدان الحضارة الانسانية بوجه عام وفى ميدان النظم العسكرية بوجه خاص ، ولاغرابة فى ذلك لأنه عصر عرف مايمكن تسميته بالتاريخ المتحرك نظراً للأحداث التى تميزه بطابع خاص . فهو عصر اتسم بالروح الحربية التى نمت وتطورت بفعل الحروب الصليبية ، تلك الحروب التى تطلبت من المسلمين جهاداً ضدها فأثارت من قبل هؤلاء المسلمين حركة الجهاد التى لم تكن فى واقع الأمر سوى رد فعل على الهجوم الصليبي فى صورة حروب « صليبية مضادة » . لذلك سرعان مايلاحظ الباحث فى المصادر التى تتحدث عن العصر الأيوبى أن الطابع العسكرى يغلب على النظام الأيوبى لأن ظروف هذا العصر الحربى شدت كل أجهزة الدولة الأيوبية ووجهتها نحو خدمة الحرب المضادة للصليبيين حتى غلبت المصطلحات العسكرية على النظم الأيوبية بل وصبغتها بصبغتها ، فأرست بذلك قواعد راسخة لنظم عسكرية استمرت حتى بعد الأيوبيين أنفسهم(١).

ولقد أثبتت الأبحاث التى قمنا بها عن النظم الأيوبية فى مصر زمن الأيوبيين(٢) أن الدولة الأيوبية كانت قد أعدت جيشاً حديثاً على عصره ، مبتكر تنظيمه من خلال ظروف الحرب ومتطلباتها المتجددة . فأوضحت جلياً أن متجددات

الحرب والحرب المضادة فى العصر الأيوبى دفعت العقل البشرى المسلم إلى إعمال فكره وقدح ذهنه من أجل إيجاد الحلول المناسبة لكل ثغرة قد تظهر أثناء الحرب سواء من ناحية تنظيم الجيش المسلم واستراتيجيته خاصة أو من ناحية النظم العسكرية عامة .

ونتيجة لذلك يعتبر العصر الأيوبى من وجهة نظرنا عصراً مجدداً ومبتكراً وإدراك ذلك من السهولة بمكان إذا علمنا أن الحرب واحتياجاتها تدفع الانسان الذى يقوم بها إلى أن يحسن استخدام القدرة الخلاقة التى أودعها الله سبحانه وتعالى فيه من أجل إيجاد الحلول الأفضل للمشاكل التى تظهر وتتجدد بفعل ظروف الحرب نفسها . ومن أجل ذلك نعتقد اعتقاداً راسخاً أن سياسة الحرب المضادة التى اضطر الأيوبيون إلى اتباعها بسبب وجود الفرنج على أراضيهم القومية دفعتهم إلى خلق النظم العسكرية التى تكفل لهم الوسائل الفعالة لمواجهة متطلبات ذلك العصر الحربى ، وكان لا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بإرساء قواعد قوية لهذه النظم من أجل تطبيق سياسة حرب مدروسة دراسة ميدانية عميقة قبل اتخاذ قرار الحرب أو السلم . وبذلك ليس غريباً أن نقول بأن النظم الأيوبية تعتبر فى نظرنا نظماً أيوبية خالصة . صحيح أن النظام الأيوبى اعتمد فى أوائل عهده على ماوجده من نظم كانت تطبق من قبل ذلك العهد ، ولكن ظروف عصرهم المتغيرة سرعان ماساعدت على ميلاد نظم جديدة موسومة ببصمات الأيوبيين .

ولعل من الموضوعات الهامة التى ننوى معالجتها تباعاً على صفحات هذه المجلة إن شاء الله تعالى — خصوصاً فى هذه الأيام التى تمر بها المنطقة العربية — هو موضوع نظام الاعداد المعنوى الذى اتبعه الأيوبيون تجاه الجيش والشعب على السواء . فى الحق لقد أرسى الأيوبيون قواعد هذا النظام بدافع من حتمية الظروف التاريخية التى فرضتها الحروب الصليبية ، تلك

الحروب التى تطلبت جهاداً ضدها من قبل المسلمين فكان مانسميه مجازاً « بالحروب الصليبية المضادة » . إذ أن من البديهى أن لكل فعل رد فعل ، فالقوة لايصدها غير القوة والحرب لاتردعها إلا الحرب المضادة التى ينبغى أن تكون متفوقة على تلك الحرب .

ومن المسلم به أن المتجددات التى كانت تحدث بفعل الحروب الصليبية كانت تدفع العقل البشرى الأيوبى — مثلما ذكرنا آنفاً — إلى اكتشاف ذاته الخلاقة التى ساعدته على ابتكار جيش هو ، كما قلنا أيضاً ، حديث على عصره ، مبتكر تنظيمه من خلال ظروف الحرب ومتطلباتها ، بحيث أصبح فعلا قوة ردع عسكرية فعالة ، هدفها ردع العدوان الصليبى وصده عن الأراضى العربية .

ولكن الأيوبيين أدركوا منذ الوهلة الأولى أنه كى يكون لقوة الردع العسكرية التى أنشأوها ونظموها فى صورة جيش قوى وحديث ، فاعليتها ضد العدو ، أدركوا أنه ينبغى عليهم ألا يغفلوا عن تنظيم قوة أخرى لاتقل ضراوة عن هذه القوة العسكرية ألا وهى قوة الردع الشعبية التى بدونها لايستطيع أى جيش على الاطلاق فى كل زمان ومكان أن يحقق الغرض من تكوينه وهو الدفاع عن الأراضى والمكاسب القومية .

وفى الحق لقد علمنا التاريخ على مر عصوره أن جيشاً منفصلا انفصالا معنويا عن شعبه وبمعزل عنه لايمكن أن تتوفر له عناصر تكوينه الأساسية ولاعجب فى ذلك فالشعب كان دائماً وسيظل مصدر قوة الجيش وركيزته التى تعكس مدى جدية تنظيمه .

من أجل ذلك أدركت الدولة الأيوبية حتمية إشراك كل قوى الشعب فى صد العدوان وذلك عن طريق تأسيس قوة الردع الشعبية . وبدا لها جلياً أن هذا لن يتحقق إلا إذا وجدت فكرة صد العدو مكاناً مرموقاً فى قلب

كل مواطن خصوصاً فى عصر تميز بروح الحروب الصليبية التى نشبت فعلاً فى بعث روح الجهاد لدى المسلمين تلك الروح التى كانت بمثابة رد فعل للحروب الصليبية .

وإذا كانت الحروب الصليبية مرتبطة بفكرة الحرب المقدسة التى استمدت دواماً قوتها من إيمان شعوب الغرب المسيحى بحقها فى الأراضى المقدسة بفلسطين ، فقد كان من الضرورى مجابهة الفكرة بنفس الفكرة فلا يفل الحديد إلا الحديد ، أى أنه بات محتما أن ترتبط أيضاً فكرة الجهاد أو « الحروب الصليبية المضادة » بنفس الفكرة وتستمد قوتها من إيمان الشعوب الاسلامية بحتمية تخليص أراضيها المقدسة من براثن الاستعمار الصليبى ، ولا غرابة فى ذلك فقد كانت القضية فى مظهرها واحدة بالنسبة للفريقين ، ألا وهى قضية تحرير الأراضى المقدسة من سيطرة « الكفار » !! وكان ذلك هو الدافع — ولو أنه ليس الوحيد — الذى دفع الصليبيين إلى القيام بحملاتهم ، كما كان أيضاً المحرك الذى ساعد على بعث روح وفكرة الجهاد بين المسلمين . وعلى ذلك يمكن القول بأن الصليبيين والأيوبيين قد تحاربوا من أجل تحقيق هدف واحد . . هدف ذو صفة مقدسة وقومية فى ذات الوقت . ولذلك نعتقد أن الأساليب التى اتبعت فى الغرب المسيحى من أجل تعبئة الرأى العام للانخراط فى الحملات الصليبية تشابهت فى بعض الأحيان مع تلك التى سلكها الشرق الاسلامى بهدف تهيئة المسلمين للانضمام بين صفوف جيوش الجهاد ضد الصليبيين أو حتى لمساندة هذه الجيوش بالطرق المدنية الأخرى . وليس فى هذا ما يدعو على الدهشة لأن القضية — مثلما ذكرنا — كانت فى مظهرها واحدة بالنسبة للفريقين ألا وهى قضية تحرير الأراضى المقدسة من سيطرة « الكفار » فالصليبيون كانوا ينادون — ولو فى الظاهر — بأن المسلمين ليس لهم حق فى بسط سلطانهم على الأراضى المقدسة بحجة أنهم « كفار » ولو أن

أهدافاً أخرى كانت تعتمل فى باطن الصليبيين سوف نشير إليها فى حينها ؛ والمسلمون بدورهم ينظرون إلى الوجود الصليبى على أراضيهم المقدسة والقومية فى ذات الوقت على أنه دنس لابد من تطهيرها منه بل وأدركوا أن هذا الوجود الصليبي ما هو إلا عمل من أعمال سلب الأرض ونهبها من أصحابها الشرعيين باسم الصليب ، وكان ينبغى عليهم أن يبذلوا كل جهد من أجل استعادة الحقوق المسلوبة وطرد المحتل من أراضيهم القومية . وفى الحق نجد المؤرخ السويسرى پول روسيه Poul Sousset لم يخطىء حينما قال فى كتابه عن الحروب الصليبية أن هذه الحروب يمكن اعتبارها حلقة فى سلسلة حلقات تاريخ استعمار البشر لبعضهم البعض .

وعلى ذلك فقد كان بسبب ما بدا لنا من مظهر واحد لقضية الصراع بين الصليبيين والمسلمين حول الأراضى المقدسة ، أن رأينا لزاماً علينا تكوين فكرة عامة عن الوسائل التى اتبعها الغربيون من أجل دفع طبقات المسيحيين على اختلافها فى أوربا إلى القيام بالحملة الصليبية الأولى ، وذلك قبل معالجتنا للوسائل التى اتبعها المسلمون بغرض حشد طاقات شعوبهم لمجابهة هذا الهجوم المسيحى بهجوم مضاد إسلامى .

إن من يدرس هذا الموضوع لا يمكنه – أكاديمياً إنكار الدور الفعال والمؤثر الذى لعبته البابوية والكنيسة فى هذا المضمار . فقــــد عرفت – فى الواقع – البابوية والكنيسة كيف تستغل كل الامكانات المتاحة تحت تصرفها من أجل دفع المسيحيين إلى المساهمة بشرياً ومادياً فى هذا المشروع الكبير الذى كانت تزمــــع القيام به وهو الحرب الصليبية الأولى . ولكننا نعلم أن حادثة تاريخية كبرى كانت قد حدثت قبل دعوة البابوية لهذه الحرب الصليبية الأولى بأكثر من عشرين عاماً ، ونقصد بهذه الحادثة موقعة متريكرت التى

انهزم فيها الامبراطور البيزنطي رومانوس ديوجين Romain IV Diogène في يوم ١٩ أغسطس سنة ١٠٧١ أمام جيوش الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى ، تلك المعركة التي سحقت فيها قوات الامبراطورية البيزنطية ووقع الامبراطور البيزنطي نفسه في الأسر . وتم للسلاجقة بقيادة سليمان بن قطلمش الاستيلاء على آسيا الصغرى(٤) مما دعا الامبراطور البيزنطي إلى ارسال طلبات النجدة والاستغاثة إلى الغرب المسيحي لأن خطر الزحف الاسلامي السلجوقي أصبح يهدد الامبراطورية البيزنطية بل وأوربا الغربية كذلك(٥) . في الحق لقد كانت هذه الموقعة كارثة عظمى منيت بها الامبراطورية البيزنطية بل واعتبرها مؤرخو التاريخ البيزنطي نقطة تحول خطيرة في هذا التاريخ(٦) . بل ويعتبر المؤرخ H. St. L. B. Moss يوم هزيمة الامبراطورية في منزيكرت من أسود أيام تاريخ بيزنطة الطويل(٧) .

غير أن تلبية مثل هذه الاستغاثة البيزنطية في هذه الآونة بالذات لم يكن ممكناً بسبب الظروف الدولية التي لم تكن موائمة لمثل هذه الحركة .فلم يكن الغرب ذو الفكر الاقطاعي سياسياً واجتماعياً في ظروف تسمح له بتنظيم حملة عسكرية كبيرة (٨) ، فضلا عن أن ظروف منطقة شرق البحر المتوسط لم تكن لتخلق الأرض الخصبة التي يمكن أن يثمر فيها مثل هذا المشروع الغربي الحربي ثماراً طيبة . فقد كانت الامبراطورية السلجوقية في أوج قوتها ووحدتها بل وكانت في توسع مستمر ودليلنا على ذلك سقوط منطقة شرق البحر المتوسط وآسيا الصغرى في أيدى الأتراك السلاجقة أولئك المسلمون المتعصبون الذين اعتنقوا المذهب السني وأفادوا الاسلام إفادات جمة وظل الأمر كذلك حتى عصر السلطان ملكشاه السلجوقي ووزيره نظام الملك ذو العبقرية الفذة الذي استطاع أن يضع نظاماً سياسياً دقيقاً ورائعاً لهذه الدولة المترامية الأطراف في كتابه المشهور الذي ألفه بالفارسية تحت عنوان « سياسة نامه » أى كتاب الحكم أو السياسة والذي فيه يجد الباحث أعظم

ما تركة الفكر الانسانى السياسى فى هذا العصر لكيفية إدارة وحكم امبراطورية عظمى مثل الامبراطورية السلجوقية[٩] . وطالما ظلت تلك الامبراطورية محافظة على وحدتها وقوتها ظلت الرهبة من مجرد تفكير أعدائها فى غزوها ملازمة لهؤلاء الأعداء وهذا هو التيسير الأمثل لانتظار الغرب المسيحى مدة تربو على العشرين عاماً قبل أن يرد إيجابياً على استغاثة الامبراطور البيزنطى التى عبر عنها عام ١٠٧١م . إذ أن السلطان السلجوقى ملك شاه الذى ظل بشخصيته محافظاً على وحدة وقوة الامبراطورية قد توفى عام ١٠٩٢ وحدث ما ينبغى أن يأسف عليه كل مسلم وهو الانقسام الذى دب بين أفراد البيت السلجوقى وسرعان ما نشبت الحرب بين بركياروق ابن ووريث ملكشاة وعمه تتش الذى لم يشأ الاعتراف بسلطنة ابن أخيه، وانتهى الأمر بهزيمته عند الرى . غير أن الذى يهمنا هنا هو أن الخلاف الذى دب بين أفراد البيت السلجوقى كان بداية تفكك الامبراطورية الفتية السلجوقية فزحف الوهن إلى أعضائها والضعف إلى جيوشها والانهيار التدريجى إلى حضارتها[١٠] .

كان ذلك بمثابة النور الأخضر الذى سمح للحركة الصليبية أن تولد وتبرز إلى الوجود التاريخى رغم أن دوافعاً أخرى فى الغرب – وبالذات فى أسبانيا – ساعدت على بروز هذه الظاهرة التاريخية . ولذلك نحن نعتقد أن الحروب الصليبية كانت وليدة حركة التاريخ العالمى ولم تكن نتيجة لرغبة أو دعوة ، بل إن ظروفاً دولية متشابكة مهدت الظروف أمام ظهور هذه الظاهرة التاريخية التى طالما أثارت ومازالت تثير فكر البشر والباحثين ألا وهى ظاهرة الحروب الصليبية .

نقصد من ذلك ، القول بأن البابوية والكنيسة كانت حقاً تعمل ولكن فى داخل إطار الحركة التاريخية العالمية المحيطة بها والتى ما كان باستطاعتها أن

تتحرك بمعزل عنها ، وهى فى هذه السبيل عرفت حق المعرفة كيفية التوقيت السليم للقيام بالتبشير لحركتها الصليبية فكان لابد من أن تبدأ تلك الحركة فى وقت تكون فيه الظروف الأوربية مواتية لذلك ، كما كان لابد أيضاً من أن تكون الأحوال فى الشرق الإسلامى ممهدة للطريق الذى سوف تسلكه الجيوش الصليبية . وقد نجحت البابوية فى اختيار هـــذا الوقت المناسب خصوصاً بعد التفتت الذى طرأ على وحدة الامبراطورية السلجوقية الإسلامية فى أعقاب وفاة السلطان ملكشاه مثلما ذكرنا آنفاً ، وكذلك بعد الضعف الذى أصاب الخلافة الفاطمية فى مصر . وكان على البابوية أن تعمل على استغلال الظروف الدينية والاجتماعية والاقتصادية التى تحكمت فى أوربا عشية الحملة الصليبية الأولى وهى فى ذلك كانت تتمتع بنفوذ دينى واسع النطاق على جماهير الشعوب الأوربية وإلى جانب نفوذ الكنيسة الكاثوليكية الدينى كانت توحد القدرة الاقتصادية الضخمة التى استطاعت الكنيسة تجميعها وتوجيهها لخدمة أهدافها(١٢) . وفى الحق لقد وجدت الكنيسة أمامها أرضاً ممهدة لتقدم دعوتها فى أوربا ، فالظروف الاقتصادية — الاجتماعية التى كانت تتحكم فى أوربا عشية الحملة الصليبية الأولى جعلت المجتمع الأوربى فى « حالة انتظار » لمثل هذه الدعوة ، فنرى أن البابا إربان الثانى حينما دعا إلى الحملة الصليبية الأولى فى مدينة كليرمون فيران Clermont Ferrand بفرنسا عند افتتاحه للمجمع الكنسى يوم ١٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥(١٣) ، يستغل إلى أبعد مـــدى الصعوبات الاجتماعية — الاقتصادية التى كانت تئن تحت وطأتها الجماهير المسيحية . ألم تكن تبحث عامة الشعب فى القارة القديمة (أوربا) عن السبيل الذى يمكن أن تسلكه لتحرير نفسها من تلك الصعوبات؟ ألم تجد تلك الجماهير فى دعوة البابا فرصة مواتية كى « تضرب فيها عصفورين بحجر واحد » فترضى معتقداتها الدينية من ناحية وتجيب رغباتها من أجل تحسين أحوال معيشتها من ناحية أخرى ؟ . فى الواقع لقد كان لدعوة البابا فى مثل هذه الظروف صدى قوى وعميق اتخذ صورة الحماس الدينى الجماهيرى

الذى لم يكن فى رأينا سوى ملجأ آوت إليه هذه الجماهير الباحثة عما يريحها من صعوباتها الاجتماعية ــ الاقتصادية بل العسكرية كذلك حتى ولو كان ذلك معنويا فى صورة حماس دينى . لقد كان لدعوة البابا حقاً أثر عميق فى إثارة الرغبة الدفينة لدى الجماهير المسيحية للذهاب إلى الأراضى المقدسة ورؤية قبر السيد المسيح وذلك مما كانت تسمعه هذه الجماهير من الروايات التى كان يرويها عن الأراضى المقدسة الحجاج الأوربيون الذين كانوا فى إزدياد مطرد والذين أحاطوا رواياتهم بكثير من المبالغة التى كادت تقرب من حد الأساطير(١٤) . وبذلك اعتقدت الجماهير الأوربية أن فى ذهابها فى الحملة الصليبية الأولى خلاص لها من صعوباتها الاجتماعية - الاقتصادية ففى ذلك خروج لها من حالة العبودية إلى حالة الحرية الإنسانية وترقية لأحوالها الاقتصادية بالتالى ، كما اعتقدت أيضاً أن بعملها هذا كانت تسلك السبيل الذى يمنحها رضا الرب .

وإذا كانت البابوية قد استنفرت الجماهير الأوربية المسيحية من أجل القيام بالحملة الصليبية الأولى على أساس أن تلك الجماهير لم تكن فى الواقع سوى الوقود الذى منه كانت تتغذى نار الحرب الصليبية اشتعالا ، فلم تكن (البابوية) لتغفل عن طبقة النبلاء والسادة الأوربيين الاقطاعيين الذين كانوا يرنون ببصرهم نحـــو أمل طالما داعب أفئدتهم وتراءى أمام خيالاتهم . فالمعلوم أن النظام الإقطاعى الأوربى لم يكن يعطى الحق فى حمل لقب « كنت » « Comte » سوى للإبن الأكبر بعد وفاة والده وبذلك كان بقية النبلاء محرومين من حمل مثل ذلك اللقب ، وعلى ذلك لاغرابة إذا كانت هذه الطائفة من النبلاء تحاول البحث عن أماكن أخرى من العالم حيث يستطيعون تأسيس كونتيات أو إمارات لكل منهم ، وكانت البابوية تعرف هذه الحقيقة فشجعت هؤلاء النبلاء « المتعطشين للحصول على أراضى جديدة لهم(١٥) » على الاشتراك في الحملة الصليبية على أمل أن ذلك سيحقق مطالبهم فوعدتهم الوعود

التى تتناسب ورغباتهم تلك . وبذلك نرى أن البابوية — وهى فى سبيل حشد الطاقات البشرية اللازمة للحملة الصليبية — كانت تلعب على الوتر الحساس الذى يؤثر فى كلتا الطائفتين اللتين كانتا تكونان المجتمع الأوربى . فخاطبت الجماهير الشعبية بلغة تتلاءم مع أحوالها النفسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية . وكذلك نراها تناجى طبقة النبلاء الإقطاعيين بلسان يلهث برغباتها وأطماعها . ولذلك نحن نرى أن الحملة الصليبية الأولى كانت الوسيلة الواحدة التى جمعت بين مصالح هاتين الطبقتين المتضادتين مع ما فى ذلك من غرابة الجمع بين الضدين !!! . ففى الحق لقد كان لأولئك ولهؤلاء أهداف متباينة يطمعون فى تحقيقها من وراء القيام بالحملة الصليبية . وبذلك نرى — ويرى معنا كل صاحب فكر خصيب يبحث فى ظاهرة الحروب الصليبية — أن الحملة الصليبية كان لها ظاهر دينى يخفى وراءه خلفية منسوجة سدى ولحمة بخيوط من الصعوبات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى كانت غارقة فيها أوربا عشية الحملة الصليبية الأولى .

وإذا كانت البابوية قد اهتدت إلى اللغتين اللتين بهما استطاعت التأثير فى تلك الطبقتين من المجتمع الأوربى فإن استخدام وممارسة هاتين اللغتين كان يتم بواسطة أناس توفرت فيهم قوة التأثير فعرفوا براعة اللعب على الوتر الحساس لكل من الطبقتين فجعلوه يهتز حماسة وحمية ورغبة أكيدة فى تنفيذ المشروع البابوى ، بل لعل الأهم من ذلك أن هؤلاء الذين استخدمتهم الكنيسة الكاثوليكية اهتموا بنقطة على درجة بالغة من الأهمية ألا وهى توكيد إيمان هاتين الطبقتين بمشروعية القيام بتنفيذ مشروع الحملة الصليبية. ونقطة الإيمان هذه فى الواقع تمثل بالنسبة لنا نصف النجاح فى تنفيذ هذا المشروع . وسوف نرى أنه كان لابد من أن يقابل هذا الإيمان المسيحى الغربى بإيمان مضاد إسلامى .

وفى الحق لقد اهتمت الكنيسة بتجنيد رجال الدين المسيحيين من أجل

الدعوة الشعبية لهذا المشروع الصليبي فلعبوا بذلك الدور الأساسي الذي كان لا بد منه لتجميع القوة البشرية والمادية اللازمة للحملة الصليبية . ولا يخفى علينا أن استخدام رجال الدين في الدعوة للحملة الصليبية كان أمراً طبيعياً خصوصا إذا ما أريد مخاطبة شعوب خاضعة خضوعاً كاملا لتسلط فكرة الحماس الديني ، تلك الفكرة التي سيطرت على هذه الشعوب خصوصا بعد الحركة الإصلاحية التي حدثت في القرن الحادي عشر بكلوني Cluny[16] ومنها امتدت إلى كل المسيحيين في القرن الثاني عشر . مثل هذه الشعوب التي كانت مشتعلة بروح الحماس الديني ومفعمة برغبة التقشف الديني كان لا بد من مخاطبتها بلغة الإيمان والدين ؛ ومن أحسن رجال الدين حديثا في الإيمان ؟ ومن أفضل منهم أو أكثر منهم فصاحة أو مهارة في استغلال نقطة الضعف هذه لدى المؤمنين المسيحيين ذوي الحساسية الخاصة فيما يتعلق بالحديث عن الإيمان ؟ وترتيبا على ذلك حشدت الكنيسة قساوسة ورهباناً وعهدت إليهم بمهمة تحريك الهمم وإيقاظ الرغبة بين المسيحيين على اختلاف نزعاتهم من أجل خدمة قضية « تحرير أو تخليص قبر السيد المسيح والأرض المقدسة من براثن الكفر الاسلامي » على حد تعبيرهم . هكذا كانوا يتحدثون . وهكذا كانوا يؤمنون ، وقد كان هؤلاء القساوسة والرهبان يلقون بكل ثقلهم وهيبتهم الدينية ويمارسون ضغطا سيكلوجيا عنيفا من أجل تعبئة جماهير المسيحية للانخراط في صفوف الحملة الصليبية . وكان طبيعيا أن يتخذ هؤلاء القساوسة من الخطاب الذي ألقاه البابا إربان الثاني في كليرمون دليلا لهم ونبراسا يهتدون به . وعلى الرغم من أن التاريخ لم يحتفظ لنا بالنص الرسمي الكامل لخطاب البابا إلا أننا نستطيع تكوين فكرة عامة عن أهم الأفكار التي تضمنها ذلك الخطاب من واقع ما أورده لنا فوشيه دى شارتر Foucher de Chartres الذي كان حاضر الجلسات المجمع الكنسي اختتم جلساته يوم ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥ م في مدينة كليرمون وبالتالي

استمع بالتأكيد لخطاب إربان الثانى الذى ألقاه فى أعقاب هذا المجمع ، وكذلك مما احتفظ لنا به بودرى دى دول Boudri de Dol . فقد اهتم البابا فى خطابه الذى وجهه لجماهير الشعوب المسيحية بنقطة نعتبرها من أهم نقاط الخطاب ألا وهى « حث كل فرد على أن يعيش وفق القانون الإلهى فيسير فى حياته مستمسكا بالقواعد الكنسية حتى يحقق ما يسمى بالهدنة مع الرب » . ولكن البابا يستطرد قائلا : « . . . ولكن إلى جانب تحقيق ذلك عليكم القيام بعمل خيرى آخر وهو الذهاب لإغاثة إخوانكم الذين يعيشون فى الشرق . . . فقد هاجمهم الأتراك والعرب . . ودمرت الكنائس كما خربت الأماكن المقدسة (المسيحية) . . من أجل ذلك أتوسل إليكم ليس باسمى أنا ولكن باسم الرب أن تجندوا الفرنج على اختلاف طبقاتهم ، مشاة وفرسانا ، فقراء وأغنياء من أجل إنقاذ عبيد المسيح وطرد الجنس الزنديق »[١٧] . غير أن البابا لم يكن ليكتفى بذلك فنراه يضيف دافعاً آخر يبرر القيام بالحملة الصليبية وهو أن هذه الحملةسوف تكون بمثابة الملجأ الذى يلجأ إليه المتحاربون المسيحيون الذين طالما دخلوا فى حروب أهلية فيما بينهم مريقين بذلك دماءهم ، فبخروجهم فى الحملة الصليبية تحقيق للسلام بالنسبة للمسيحية ذاتها فى أوربا وحقنا لدماء المسيحيين . !! فيذكر بودرى دى دول أن البابا قال للمسيحيين فى خطابه « إنكم تمزقون بعضكم بعضاً ، وتعتدون على الأيتام ، وتغتصبون الأرامل ، إنكم ترتكبون المذابح الفظيعة (ضد بعضكم البعض) وتدنسون المقدسات . . . امتنعوا عن قتل إخوانكم ، ووجهوا ذلك نحو أمم أجنبية وحاربوا بدلا من ذلك من أجل القدس سُرة العالم » . وفى نص آخر أورده لنا راهب اسمه روبير لاموان Robert le Moine نرى الدافع الاقتصادى يبزغ من بين ثنايا خطاب البابا الذى قال « إن الفقر ومصادر الطعام المحدودة كانت السبب الأساسى

وطلب البابا من أولئك الذين يرغبون فى التطوع مع الحملة الصليبية أن يحيكوا على قمصانهم قطعة من النسيج على شكل الصليب رمزاً لتطوعهم ، يحيكونها على الكتف الأيمن أو بين الكتفين . وبذلك بدأت تتكون الحملة الصليبية الأولى وضع بذورها الأولى البابا إربان الثانى وتعهد هذه البذور بالرعاية رجال الدين الذين سرعان ما انتشروا بين جماهير وسادة أوروبا متأسّين بطريقة البابا فى إلهاب حماس تلك الجماهير وفى مخاطبة طبقاتهم بلغة تتناسب وظروفهم . وسوف نتناول هذا الموضوع فى مقال مقبل بإذن الله .

المراجع

(١) انظر SALAH ELBEHEIRY, L' Armée Ayyûbîde, Publications de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire.

(٢) انظر Salah Elbeheiry, Les Lettres d'an-Nâsir Dâûd, Communication faite au XXVII[e] Congrès International des Orientalistes, Ann Arbor, Michigan août 1969, publié dans ARABICA, T. XV, fasc. 2, 1968 et Proceedings of the 27th International Congress of Orientalists, Wiesbaden 1971.

وانظر أيضاً Salah Elbeheiry, Les Institutions de l'Egypte au temps des Ayyûbides, Thèse Principale de Doctorat d'Etat soutenue en Sorbonne 1971 et publiée par l'université de Lille III, 1972; Kitab Al Fawâîd al-Jaliyya. Institut français de Damas.

وانظر أيضاً Salah Elbeheiry, Le Décret de nomination de l'historien Ibn wasil au poste du professeur de le mosquée al-Aqmar, Communication faite au XXIX[e] Congrès International des Orientalistes, Paris 1973, in Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Le Caire 1973.

(٣) cf Paul Rousset Histoire des Croisades Paris 1957

(٤) cf. Jean Ebersolt, Orient et Occident, P. 51, Paris 1954.

(٥) عن موقعة منزكرت انظر .

cf. Georges Ostrogorsky, Geschichte des Byzantinischen. Staate- Histoire de l'Etat Byzantin p 366 Paris 1956. والترجمة الفرنسية

Cl. Cahen, Pre-Ottoman Turkey: p. 29, London 1978;

Hélène Ahrweiler, Byzance et la mer, P. 139, Paris 1966;

A. A. Vasiliev, History of the Byzantine Empire, Vol. I, 356; ed Madison and Milwaukee; The University of Wisconsin press U.S.A. 1964;

Faruk Sümer, OGUZLAR (Türkmenler), p. p. 100 - 101 Ankara, 1967 وانظر ايضاً المرجع التركى الهام

The shorter Cambridge Medieval History, Vol. I, pp. 278-279; History of the Crusades, Vol. I, pp. 143—149, ed. by Setton Philadelphia 1958: Claude CAHEN! La Syrie du Nord à l'époque des Croisades, p. 182 ét 199, Paris 1940.

(٦) انظر Steven Runciman, La Civilisation Byzantine, p, 53, trad française, Paris 1952; René Grousset, Histoire des Croisades, Vol. I, pp, XXX-XXXIII. Paris 1934.

(٧) انظر The History of the Byzantine Empire : an outline, p. 28 in Byzantium : An introductiom to East Roman Civilization edited by Norman H. Baynes and L. B. Moss, Oxford 1962.

(٨) عن أحوال أوربا الاقطاعيين انظر

Henri Pirenne, A History of Europe 2 Vol New York, 1958; et son livre sur "Les Grands Courants de l'Histoire في سبعة أجزاء Universelle" 7 Vol.

ولخصها ابنه جاك في كتابه بانوراما على التاريخ العالمي

Jacques-Henri Pirenne, Panorama de l'histoire universelle, Paris 1963;

Marc Bloch, La Société féodale, aris et 939-998 (Traduit en inglais éd. Chicago 1961:

Robert Boutruche, Seigneurie et Féodalité, Paris 1959; Carl Stephenson. Medieval Feudalism' Cornell, U. S. A, 1965; Ch Ed. Perrin, La société Féodale allemande et ses institutions du x[e] au XIIe siècle, C. D, U. Paris (Sorbonne) et son "seigneurie rurale en France et en Allemagne du début du IX[e] à la fin du XII[e] siècle, C. D. U. Paris (Cours de la Sorbonne).

(٩) انظر cf. Nizâm al-Mulk, Siasset—Nâmeh, éd. Charles Schefer, Paris 1893.

وهذا الكتاب مترجم أيضاً الى الانجليزية انظر :

Hubert Darke. The Book of Government, ed London 1965

(١٠) انظر الراوندى : راحة الصـدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية .
ترجمة عن الفارسية إبراهيم الشوارى وآخرين . القاهرة سنة ١٩٦٩ .

وعن الأتراك السلاجقة انظر المرجع الذى كتبه المؤرخ التركى المعاصر فاروق سومر .

cf. Prof. Dr. Faruk SUMER, OGUZLAR (Turkmenler), Ankara Universitesi Basimevi 1967., Claude CAHEN, Pre — Ottoman Turkey op. cit et son article sun la première pénétration turque en Asie Mineure, Byzantion, t. XVIII, 1943

وكذلك المقال الذى كتبه المؤرخ السوفييتى المعاصر حسينوف عن الجيش السلجوقى .

cf. Husseynov (R. A.), L'organisation de l'armée Saljukide, (en russe) in Recueil Palestinien, Sbornik. éd Naouka "Science" Leningrad, 1967.

والكتاب الذى كتبه المؤرخ الأرمنى الأصـل باسدر ماجيان الأستاذ الحالى بجامعة جينيف عن تاريخ أرمينية ففيه بضع صفحات هامة عن تاريخ السـلاجقة وعلاقتهم بالأرض انظر :

H. Pasdermadjian Histoire de l' Arménie, 2ème éd. pp. 236—240, Paris 1864.

Minorsky (V.) A civil and military review in Fars BSOS, vol. X, Part. 1, 1h39:

Nikita Elisséeff, Nur ad — Din, 3 vol. publié par l'Institut Français de Damas, 1967: René Grousset, Histoire des Croisades, op. cit, vol 1, pp. XXV—XXXIX.

(١١) انظر :

Paul Alphandéry, La Chrétienté et 'l' idée de croisade vol. I, pp. 16 -- 17 et 26 — 27, éd. Paris 1954; E. Perroy (et autres), Le Moyen Age, op. cit, pp. 267—272.

حيث يوجد فصل شيق بعنوان « Reconquista et croisade »

(١٢) انظر : H. Lietzmann, Histoire de l'Eglise Ancienne, 4 vol., Paris 1949, 50,61,

cf. E. Perroy (et autres), Le Moyen Age, in Histoire générale des civilisations, vol. III, P. U. F. Paris 1961.:

(Michel) Villey, La Croisade, Essai sur la formation d'une théorie juridique, Paris 1932

(١٣) انظر :

cf. Paul Alphandéry, La chrétienté et l'idée de Croisade, op cit' vol. I, pp. 31—33.

(١٤) انظر :

cf. Paul Rousset, Histoire des Croisades, p. 43; éd· Payot, Paris. 1957,' Ostrogorsky, Histoire de l' Etat Byzantin, p.382' op. eit.

وانظر بعين الاهتمام الى الفصل الذى كتبه پول الفاندرى فى كتابه سالف الذكر (حاشية ٢) عن الحجاج والحملات الصليبية .

Paul Alphandéry. La Chrétienté et l'idée de Croisade, op. cit, vol. I. pp. 9—42.

(١٥) انظر :

Ostrogorsky, Histoire de l'Etat Byzantin, op. cit, p 382.

وعن المجتمع الاقطاعى انظر المراجع التى سبق ذكرها عن هذا الموضوع فى حواشينا السابقة .

L. Perroy, Le Moyen Age; op. cit, p 234 sq.

(١٦) عن إنشاء دير كلونى سنة ٧١٠ م انظر :

E. Perroy, Le Moyen Age, op cit. pp 149—150.

ولقد نشأت فى هذا الدير حركة إصلاحية سرعان ما انتشرت بين المسيحيين أجمعين فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر وذلك أن رجال الدين فى دير كلونى كانوا يعيشون فى مستوى الإقطاعيين بحيث أصبح هناك ما سمى فى التاريخ برجال الدين الارستقراطيين مما جعلهم هدفاً لكثير من النقد والتجريح وتساءل الكثيرون المعاصرون لهم عن أحقية رجال الدين فى العيش كاقطاعيين أرستقراطيين سكناً وملبساً ومعاشاً . وبذلك ظهر فى القرن الحادى عشر تيار جديد يهدف إلى إحداث اصلاح دينى أعمق من الإصلاح المعروف الذى أجراه البابا جرجوار السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥ م) فكانت الحركة الاصلاحية المعروفة باسم الحركة الكلونية . انظر المرجع المذكور فى رأس هذه الحاشية ص ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(١٧) انظر :

Paul Rousset, Histoire des Croisades, op. cit, p. 4I.

(١٨) انظر :

Paul Rousset, Histoire des Croisades, op 42·